

والى البصريين يرجع الفضل بطبيعة الحال لى تحقيق اللغة، وتمييز صحيحها من فاسدها ، وغريبها من مستعملها ، وان كان الكوفيسوز، قد ساهموا بدورهم فى هذا الميدان الا ان مؤلفاتهم على العموم، لم يتح لها تأثير كبير من حيث الذبوع والانتشار .

وقد ظلت اللغة العربية على متانتها فى عهد الرسول ، وفى ايام الخلفاء الراشدين ، وما سجل من الهفوات واللحن ، على بعض العرب آنذاك لم يكن شيئاً يذكر بالقياس الى ما بلفته العربية من فوضى فيما بعد .

مراجع هذا البحث

- 1 - « تاريخ العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على ج 1 القسم اللغوي - مطبوعات المجمع العلمى العراقى .
- 2 - كتاب « فقه اللغة » للصحاحى طبعة المؤيد 1910 م
- 3 - كتاب « غرائب القردان » للنيسابورى .
- 4 - مقدمة ابن خلدون - طبعة كتاب التحرير 1386 هـ القاهرة .
- 5 - كتاب « الخصائص » لابن جنى ج 1 مطبعة الهلال بالفجالة مصر 1913 م .
- 6 - كتاب « لسان العرب » لابن منظور طبع دار الصاوي 1355 هـ مصر .
- 7 - كتاب « المحتسب فى القراءات » لابن جنى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
- 8 - كتاب « المتنضب » للمبرد الجزء الاول والثانى طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1386 هـ القاهرة .
- 9 - كتاب « تحرير التحبير » لابن ابى الاصبح - طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية 1383 هـ القاهرة .
- 10 - كتاب « الاغانى » لابي فرج الاصفهاني طبع دار التحرير للطبع والنشر 1384 هـ القاهرة .
- 11 - كتاب « تاريخ الادب الجاهلى » لمعيد الادب العربى الدكتور طه حسين . القاهرة .
- 12 - كتاب « تاريخ ادب العرب » لمصطفى صادق الرافعى .
- 13 - كتاب « الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة - مجموعة بحوث القيت بجامعة برنستون بامريكا سنة 1953 م طبع مؤسسة فرانكلين .
- 14 - كتاب « الاتقان فى علوم القردان » الجزء الاول للسيوطى . طبع الحلبي بمصر 1965 م .
- 15 - كتاب « اللهجات العربية » لابراهيم نجا - مطبعة السعادة بمصر 1965 م .
- 16 - كتاب « الزينة فى الكلمات الاسلامية » للرازي ج 1 الطبعة الثانية - دار الكتاب العربى
- 17 - مجلة « اللسان العربى » العدد الثانى - الرباط - المغرب .
- 18 - كتاب « اشعات مجتمعات » لعباس العقاد - الطبعة الثانية - دار المعارف بمصر .
- 19 - مجلة « الرواد » العدد الثانى من المجلد الرابع - 1968 م ليبيا .
- 20 - مجلة « اللغات » المجلد الاول ، تصدر عن مركز اللغات بتونس 1964 م .
- 21 - مجلة « المعرفة » المجلد الاول تصدر بالملكة العربية السعودية 1379 هـ .

اللغات السامية

مجال علم اللغات

محمد سليم رشاد

الاستاذ المعاصر في الجامعة الاردنية

عمرت اليمن وجعلت منها موطنها لها ، وجعلت تبتمد هذه الساميات عن امها السبئية بترأخي المصور ، وتنائي الديار ، واختلاط هؤلاء النازحين بمختلف الاقوام (2) ممن جاورهم في اصقاع الارض ..» .

ثم ان هؤلاء العلماء قسموا هذه اللغات السامية الى اسر ، عرفت فيها اللغة الكنعانية وما تفرع منها بالاسرة الغربية ، وعرفت فيها اللغة البابلية وما تفرع منها بالاسرة الشرقية . ثم عرفت فيها اخيرا اللغة العربية وجاراتها الحبشية وما تفرع منها بالاسرة الجنوبية .

وان موضوعنا الذي نخوض فيه يقتضي ان نطيل الوقوف عند الكنعانية التي اصبحت الاصل الذي تشعبت منه لغات الاسرة الغربية . وكانت اللغات العبرية واحدة من هذه اللغات .

وهي الرسم من ان هذه اللغات العبرية قد تسرب اليها الكثير من الدخيل ، بسبب هجرة

ان اول ما نلتفت اليه حتى نتحدث عن اللغات السامية في مجال علم اللغات ، هو ذلك المصدر البعيد ، الذي نبعت منه هذه اللغات السامية جميعا ، وتشعبت منه في الشمال والجنوب في الاقطار المختلفة التي استقر فيها ابناء هؤلاء الساميين منذ اقدم العصور .

وقد اختلف العلماء في تعريف هذا المصدر البعيد وفي نمته وتسميته ، فمنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت منه سائر اللغات السامية هو اللغة (السامية الاولى) التي نطق بها في اعماق الدهر اقوام زالت بزوالهم وفنيت بفنائهم ، وبقيت منها ظلال ورسوم ، يلحمها الرائي على السنة احفاد اولئك الاقوام ، الذين تنوعت السنتهم باختلاف مواطنهم (1) في الشمال والجنوب .. »

ومنهم من قال : « ان هذا المصدر الذي تشعبت منه سائر اللغات السامية ، انما هو اللغة (العربية الاولى) ، التي نطقت بها سبا في غابر الدهور ، حين

- (1) ذكر هذا الرأي المستشرق (اولس هاوزن Ols Housen) في صدر كتابه ، الذي تحدث فيه عن « اللغة العبرية وتاريخ نشأتها » . والكتاب موضوع في اللغة الالمانية ومترجم الى الانجليزية .
- (2) ذكر هذا الرأي المستشرق اليهودي : (ليون ماحرز Lion Mahraz) وكذلك الدكتور علي العناني ، وذلك في كتابهما الذي صدر بعنوان : « الاساس في الامم السامية ولغاتها » وقد وضعاه في اللغة العبرية .

ابنائها العبرانيين الى مصر ، واقامتهم الاجيال الطويلة فيها ، ثم تشردهم بعد ذلك في بلاد (ملكان) قرابة نصف قرن من السنين ، وهي ايام التيه في سيناء .

وعلى الرغم من ذلك ، فان هذه اللغة ظلت قريبة الشبه من امها الكنعانية ، وغير بعيدة عنها . حتى كان اليهود انفسهم يصفون لغتهم العبرية ، بانها (لسان كنعان) . وقد ورد ذلك صراحة - وفي مواطن كثيرة - في اسفار كتابهم المقدس .



وان اللغة العبرية لم تشارك الكنعانية في اصولها فحسب ، بل شاركتها في حروفها ، ومن اجل ذلك كتبت العبرية - اول ما كتبت - بالحروف الابجدية الكنعانية ، وظلت تكتب بها طوال العهد الذي مر بالعبرانيين منذ استوطنوا ارض كنعان ، الى ان كان السبي وخراب بيت المقدس . وكان شاهد ذلك ، النقش الذي خلفوه في نفق (مين سلوان) عند الزاوية الشرقية من سور مدينة القدس الحالي (3) ، كما كان شاهد ذلك النقود التي عثر عليها في اطلال بيت المقدس من ايام عهد (الهيكل) ومن ايام عهد (المكابيين) الذين شردهم الرومان بعد ثورتهم عليهم .

وقد بقي من آثار اللغة العبرية - التي هي بنت الكنعانية - الكتاب المقدس في عهده القديم ، الذي يدل عليها اكمل دلالة ، ويسهل دراستها للباحثين ، ويقدم لهم صورة تكشف الكثير من ملامح امها الكنعانية ، التي كان من بناتها الى جانب العبرية : الفينيقية والنبطية والعمورية والموآبية ، وسواها من ساميات الاسرة الغربية .

وحين نبغى مقارنة لغات الاسرة الغربية ، بلغات غيرها من بنات الاسرتين الباقيتين ، لا نجد

امامنا ما يصلح لمثل هذه المقارنة غير لغتين اثنتين فقط ، هما : اللغة العربية من بنات الاسرة الجنوبية ، ثم اللغة الآرامية (ام السريانية) من بنات الاسرة الشرقية . وذلك لان ما عداهما ، اما انها ضاعت معالمها الاصلية ، لكثرة ما اقتحم عليها من دخيل الشعوب المجاورة ، كاللغة الحبشية في الاسرة الجنوبية ، واما انها زالت بؤوال اهلها ، كالاشورية ، والكلدانية . وسواهما من بنات الاسرة الشرقية المتفرعة من البابلية .

ولما كانت اللغة العربية هي موضع الاهتمام كله بالنسبة لنا - نحن ابناءها الناطقين بها - وفي ظلها تدرس اللغات السامية من اجل ان نستكمل الاحاطة بها ، وتوغل الى جذورها البعيدة خلف اعماق الدهر ، حين كانت المبتدأ الذي منه تشعبت هذه اللغات السامية جميعا ، كما تكاد تجمع آراء الباحثين ، لذا فان مثل هذه المقارنة بينها وبين ما نتوصل الى معرفته من بنات هذه الاسر جميعا ، هو نهاية المدى وخاتمة المطاف والغاية التي نستهدفها من هذه الدراسة .

اذن بقي علينا ان نلتمس مثل هذه المقارنة بينها وبين اللغة الآرامية (ام السريانية) ، وعندها لا بد لنا من الوقوف عند مدينة (الرها) لنلم بتاريخها ، ونعرف اخبار علمائها الذين التحقوا لغتهم بالكثير الكثير من روائع المؤلفات في مواضيع مختلفة . ثم نلتفت بعد ذلك الى الاثر الخالد وهو الانجيل في اللغة الآرامية لغة السيد المسيح ، الذي كان وجدته السبب في بقاء هذه اللغة تتردد في ساحات الكنائس على السنة المصلين . ورغم ذهابها من حياة الناس ، حيث استبدل بها اهلها في كثير من ارجاء الارض لغة الشعوب التي فرضت عليهم سلطانها .

ولن ينقص من الاهتمام بهذه اللغة ، كونها لغة انحسر ظلها ، واصبحت في عديد اللغات التاريخية ،

(3) اسمها في لغة الكنعانيين القديما (شلوح) وكانت تطلق على الينابيع وعندهم نقلها العبرانيون، وفي اللغة المؤابية تقابلها كلمة : (اشوح) ، وقد وردت في (حجر ذيبان) ، واشير بها الى مورد الماء . وهذا الحجر عثر عليه في الاردن على مقربة من بلدة مادبا.

(4) الرها: اسمها الآرامي (ارهوئي) ، واسمها اليوناني اديسا - Edessa) ، وقد كانت حاضرة العلم . وفيها قامت لها مدارس تنقل الحضارتين الافريقية والهندية الى ابناء المشرق ، ويؤلف علماءها في ذلك الكتب الكثيرة . وهي التي اتمدها المترجمون في عهد الخليفة المأمون العباسي.

تتناول شأنا من شؤون اللغة ، والبحث في تاريخها وأصولها ، وقد استعمل هذا اللفظ قبل الميلاد في مدرسة الإسكندرية للدلالة على معرفة علوم اليونان والرومان في لغتيهما الإغريقية واللاتينية .

ثم تجوز الناس فيه فإذا هم يطلقونه على كل علم من العلوم مهما كان نوعه ، ومهما اختلف موضوعه ، ومهما تشعبت فيه المسالك واختلفت الأسباب . واستمر به الحال على هذه النوال ، حتى كان بدء عهد النهضة العلمية في إيطاليا ، وعند ذلك عاد لهذا اللفظ معناه ، الذي حدد له أيام مدرسة الإسكندرية . وفي أواخر القرن الثامن عشر ، اتسعت دائرة هذا الفن اللغوي ، فشمّل البحث فيه كل لغات بني الإنسان ، وليس فقط اللغتين : اليونانية والرومانية ثم ما في هذه اللغات الإنسانية من إنتاج عقلي ، حتى أصبحت كلمة (فيلولوجيا) تدل على المعنى الآتي وهو : « علم اللغات ، الباحث عن جميع الدراسات ، لدى كل أمة من الأمم ، لمعرفة اللغات وأصولها ، وكل ما أنتجته معرفة الإنسان » .

لذلك كان على (علم اللغات) أن يقدر درجات الرقي الإنساني العام ، في اللغة والأدب وفي النظم الاجتماعية وفي الحياة الفردية ، وفي الدين والصناعة والعلوم . ومن أجل ذلك صح أن يقال : (الفيلولوجيا المصرية) أو (اليونانية) أو (العربية) أو (السريانية) أو (العبرية) أو (الهندية) وما سواها . والمراد من ذلك هو كل ما لهذه الأمم واحدة واحدة من إنتاج عقلي ، ونصيب مدني مدون في لغاتها .

على أن العلماء الذين تفرغوا لدراسة (علم اللغات) ، اصطالحوا إزاء هذا المعنى العام على وصف (الفيلولوجيا الرتبة) أو (الفيلولوجيا المحتدأة) . وذلك عند الإشارة إلى ما كان للاغريق والرومان (6) .

وغرض علماء اللغات عندها من ذلك ، هو الإشارة إلى ما كان يقصد بمدلول (الفيلولوجيا) في مدرسة الإسكندرية ، من أنها العلوم اليونانية والرومانية

التي تدرس من أجل أن تبرز غيرها ، بسبب صلتها بها وقربها منها ، واشتراكها معها في الأصول والأعراق ، وذلك حالها مع اللغة العربية وموضعها منها ، ومكانها في إبراز أصولها الجميدة ، ومن أجل هذا :

فإن دارس اللغة العبرية في أصولها القديمة والحديثة ، باعتبارها لغة تاريخية ذات علاقة وثيقة - من ناحية الأصول والصادر - باللغات السامية في أسرها الثلاث ، وبالتالي باللغة العربية ، يحسن به أن يحيط إلى جانبها باللغة الآرامية ، ولو وقف ذلك عند حد قراءة النصوص ، وتصريف الأفعال والأسماء مع الضمائر ، والإلمام بتاريخ هذه اللغة ، ومدارس علمائها يوم كانت في عهد ازدهارها ونهضتها ، وبذلك يكون قادرا على المقارنة بينها وبين العبرية من ناحية ، ثم المقارنة بينهما معا وبين اللغة العربية من ناحية أخرى .

* * *

وحين نبلغ هذا المدى ، يجدر بنا أن نعلم بأن مقارنة لغة بسواها من اللغات القريبة منها أو المشاركة لها في أصولها - كما هو الحال بين اللغات السامية على اختلافها - إنما هو علم له قواعده وأصوله ، يسمونه (علم اللغات) ، وهي تسمية كان لها مدلولها منذ عهد اليونان الأقدمين ، حين كانوا يحملون مشعل المعرفة لمن عاصروهم من أهل زمانهم ، وكانوا يلفظونها يومذاك (فيلولوجيا) وهي مركبة (5) من كلمتين : (فيلولوس) ومعناها صديق ، و (لوجوس) ومعناها كلمة ، وعلى ذلك يكون معنى الكلمتين حين اجتمعتا معا هو : (صديق الكلمة) وقد رمزوا بها إلى العالم الباحث .

وأول من نطق بالكلمة المركبة هو الحكيم (أفلاطون) ، وأراد بذلك توجيه الرغبة إلى البحث العلمي . ثم صار هذا اللفظ يطلق على كل تفرغ إلى استيعاب المعرفة ، أيا كان نوعها ما دامت هذه المعرفة

(5) فيلولوجيا : هذا التركيب المرجسي يكتب باللاتينية (Philologia) كما أن كلمة (فيلولوس) : تكتب باللاتينية (Philos) وكلمة (لوجوس) : تكتب باللاتينية (Logos) ، وذلك لمن أراد البحث عن مدلولها مفصلا في المراجع غير العربية .

(6) الرتبة : ومثلها كذلك (المحتدأة) ، ترجمة حرفية للأصل اللاتيني وهو (Classique) الذي كثيرا ما يستعمرونه إلى العربية بلفظه حين يقولون : (كلاسيكي) .

لمعرفة ما في هذه اللغات جميعها من إنتاج عقلي ،
في مجالات الدين، والعلم، والفلسفة، والأدب ،
وتاريخ الأدب، والمقارنات اللغوية، والمعنوية ولذلك
سميت (الفيلولوجيا العامة).

وقد وصلت أبحاث هذا العلم اللغوي الشامل
الى نتائج كبرى ، غيرت وجه التاريخ الانساني ،
وأقامت النهضة العلمية الحديثة ، على اسس ثابتة ،
ودعائم قوية ، وكونت علوما مستقلة ما كانت لتظهر
في عالم الوجود ، لولا علم اللغات .

* * *

وأما ما حصلت عليه البشرية من فوائد (علم
اللغات) ومنافعه الكبرى ، فقد كان كثيرا لا يحصى ،
وحسبنا أن نذكر من ذلك أننا بفضل هذا العلم ،
توصلنا الى معرفة العاديات وحل النقوش والخطوط
القديمة ، ومعرفة لغات هذه الخطوط وتلك النقوش ،
ومنها الهيروغليفية والكتابة السنسكريتية ، والخط
المسامري في اللغات : السومرية والبابلية والآشورية .

وبينما كان التاريخ العام يستند الى قامته
الاسطورية القديمة ويعتمد على روايات الكتب المقدسة ،
ويرى في رحلات الرحالين ، وأقوال الرواة ،
والإخبار التي تقوم على الحدس والتخمين ، بينما كان
التاريخ العام كذلك ، إذ بهذا العلم يزحزحه بقوته
الجبارة ، عن مكانته تلك ، ليرتكز على الأدلة الملموسة
والشواهد المرئية ، من الآثار القديمة ، والعاديات
السالفة والوثائق التاريخية المدونة ، والمخطوطات
القديمة ، فيغير بذلك وجه التاريخ العام تغييرا كبيرا ،
ويقسمه الى قسمين :

الأول : ويتناول ما دونت حوادثه الآثار ، ودلت
عليه السجلات الرسمية ، وأوضحته وأقرته العلوم
الطبيعية التجريبية ، ويعرف بالتاريخ الصحيح .

والثاني : ويتناول التاريخ المروي، أو التاريخ
الاسطوري . وهو ما لم يتوافر فيه ما توافر في
التاريخ الصحيح من أدلة وبراهين . على أن هذا النوع

القديمة ، وعلوم (التحرر الانساني) التي ابتدأت منذ
القرن الثاني قبل المسيح ، في مدرسة الاسكندرية
المذكورة (7) ، والتي ظهرت بقوة فعالة من جديد في
عهد احياء العلوم .

* * *

ويمكن حصر (الفيلولوجيا) المتعددة بعد عصر
احياء العلوم في (إيطاليا) في أربعة أدوار وأن تداخل
بعضها في البعض الآخر .

الدور الأول : وهو (الدور الإيطالي) ويمتد
تاريخه من منتصف القرن الرابع عشر الى منتصف
القرن السادس عشر .

الدور الثاني : وهو (الدور الفرنسي) ويمتد
تاريخه من منتصف القرن السادس عشر الى أواخر
القرن السابع عشر .

الدور الثالث : وهو (الدور الهولندي البريطاني)
الذي بدأ تاريخه من أواخر القرن السابع عشر ،
واستمر الى نهاية القرن الثامن عشر .

الدور الرابع : وهو الأخير ويسمونه (الدور
الألماني) ، إذ بدأت به ألمانيا من أواخر القرن الثامن
عشر ، ولا يزال في نموه المتطرد حتى الآن .

ولو ذهبنا نحصى ما أنتجه كبار الباحثين
والمفكرين من العلماء في هذا المجال ابتداء من (الدور
الأول) ، حتى (الدور الأخير) ، لضاق بنا الحصر
لكثرته البالغة .

* * *

والى جانب (الفيلولوجيا الرتيبة) ، ابتدأت
(الفيلولوجيا العامة) أو (علم اللغات)، وذلك في أواخر
القرن الثامن عشر ، فأفردت للبحث اللغوي ، في كل
اللغات الانسانية قديمة وحديثة ، حية وميتة ، وذلك

(7) التحرر الانساني : ترجمة حرفية كذلك لكلمة (Humanism) التي يستعملونها هي
الأخرى الى العربية حين يقولون : (هيومانزم).

المستفيضة في ضوابط اللغتين العربية والعبرية . ان ذلك كله لم يصل الى توسيع دائرة البحث اللغوي الذي يمكن ان تسمى نتائجه (علم اللغات) . وان الفكرة المتطرفة القائلة بان (اللغة العبرية) هي اللغة الانسانية الاولى، كانت مشبطة للهم في البحث اللغوي الحر .

من التاريخ لا يكون محلا للطعن او الرفض الا اذا جاءت البراهين الاثرية ، والنتائج العلمية الطبيعية بعدم صحته ، والا بقي الحكم له او عليه للمستقبل ، وما عسى ان تأتي به البحوث اللغوية الاثرية ، او تجارب العلوم الطبيعية مما يؤيده او ينفيه .

* * *

على ان التقارب بين اللغتين : العبرية والعربية، دفع المشرقين اليهود - منذ القرن العاشر الميلادي - الى البحث والمقارنة بينهما من جهة ، وبين (العبرية) و (الارامية) من جهة اخرى . وفي القرن السابع عشر ادرك المشرقون مدى القرابة بين اللغتين : (العبرية) و (العربية)، فدفعهم ذلك الى البحث عن هذا التشابه ، بين (العربية) واللغات السامية الاخرى، فوصلوا من ذلك الى معرفة المجموعة السامية .

ومن فوائد علم اللغات ايضا ، دراسة العقليات القديمة، وتطور الفكر الانساني ، ومدنيات الاجناس البشرية ، وروابط الامم والشعوب ، ومكانتها في المجهود العقلي الانساني والانتاج الاجتماعي المدني .

وقد اتجج (علم اللغات) علوما كثيرة ، لها اهميتها الكبيرة في حياة الانسان وكذلك في ثقافته العامة ، منها :

وفي القرن التاسع عشر ، وصل الباحثون بفضل (علم اللغات)، الى الكشف عن العلاقة بين السنسكريتية (الهندية القديمة المقدسة) وبين الفهلوية (الفارسية القديمة) من جهة ، وقرابتهما الى اللغات الاوروبية من جهة اخرى ، فوصلوا من ذلك الى تكوين مجموعة (اللغات الآرية) ، او (الهندوجرمانية). وذلك الى جانب المجموعة المتقدمة، التي عرفت بمجموعة (اللغات السامية) . ومن هناك انطلقوا الى دراسة اللغات الاخرى في مختلف انحاء هذا الكون الفسيح، فوصلوا من ذلك الى سلسلة طويلة يضيق عنها الحصر .

(علم مقارنة اللغات) مقارنة لفظية ومعنوية ، و (تاريخ ادب اللغة) ، بعد ان كان ادبا فقط ، و (تاريخ آداب اللغات المغارن) ، و (علم فقه اللغة) ، و (النقد الفني) ، و (النقد الادبي الكامل) . وكان هذا العلم الاخير موجودا من قبل ، ولكن على مستوى لا يجاوز حد البساطة في اذواق الادباء والمتأخرين والمتأدبين من (8) اسلافنا القدماء .

وخلاصة القول ، فان (الفيلولوجيا العامة) او (علم اللغات) ، لم يجاوز كونه وليد القرن التاسع عشر ، وان ما تقدم هذا العهد من الاشتغال بقواعد اللغتين الاغريقية واللاتينية ، وما تقدمه من الابحاث

المراجع :

- 1 - كتاب الاساس في الامم السامية وشعوبها ولغاتها ، للدكتور علي العناني ورفيقه ، ط 1 الجزء الاول . القاهرة - مطبعة بولاق 1925 ، ومن مواطن مختلفة فيه .
- 2 - كتاب تاريخ اللغات السامية للدكتور اسراييل ولفنسون ، وفيه بحث عن اللغات السامية جميعها وشواهد وشروح ، وقد اعتمدت الكثير منها . ط 1 (القاهرة) 1929 .
- 3 - كتاب بروتو كولات حكماء صهيون ، من الاجزاء الاربعة . وخاصة ما تناول العبرية وما جاورها من لهجات كنعانية ، تأليف حجاج نوبهض . ط 1 . بيروت 1967 .

(8) فقه اللغة : كان هذا العلم معروفا ايام حضارة العرب ، ولكن في مدلول محدود لا يجاوز حقيقة الفاظ اللغات وكلماتها . وفيه الف الثمالي كتابه: (فقه اللغة). وهو اليوم علم واسع ، يتناول فيما يتناوله في اللغات الحديثة ، العلم الذي يطلقون عليه : (Etymologie)

التفكير على الحضاري في تكسوين اللغة وتطويرها

الاستاذ محمد المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

وكانت السنة اي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله التي رواها الصحابة المصدر الثاني للاسلام عربية اللغة كذلك وهكذا ترافق الاسلام واللغة العربية منذ ذلك الحين وسارا معا عبر القرون فكانت اللغة العربية معبرة عن الاسلام وحضارته وكان الاسلام متخذاً من العربية وسيلة للتعبير عن عقيدته واحكامه واستمر ذلك حتى العصر الحاضر .

ثانيا : الارتباط الجغرافي :

ولئن كان الاسلام قد عم السواد الاعظم من العرب في وقت مبكر فانه سرعان ما تجاوز الدائرة العربية الى ما هو اوسع منها فدخل بلاداً وهم شعوباً ليست العربية لفتها فنشر العربية في قسم من هذه البلاد حتى اصبحت لفتها الوحيدة وذلك كبلاد الشام والعراق وشمال افريقيا وانضات شعوب هذه البلاد الى الدائرة العربية وان كانت لبعضها سابقة صلة بالمروية ثم تجاوز الاسلام هذه الدائرة الى بلاد اجمعية اللغة فدانت شعوبها بالاسلام فكانت العربية بالنسبة اليها لغة الدين الجديد المشتمل على عبادات قوام شعائرها اللغة العربية وعلى معاملات

ان بين الاسلام واللغة العربية صلة وثيقة وتلازما طويل الامد عميق الغور عبر الزمان وعلى مر المصور وفي آفاق الارض التي وصلا اليها وبلغا حدودها وليس التساؤل عن وجود هذه الصلة فتلك بديهية مستقرة في الاذهان ولكن من طبيعة هذه الصلة واسبابها وجوانبها وتجليه لهذا الموضوع نعرضه من جوانب مختلفة ونحاول ان نبرز مواطن اللقاء وانواع الارتباط بين الاسلام واللغة العربية .

اولا : الارتباط التاريخي :

اللغة العربية كما هو معلوم لغة معرقة في القدم استقلت عن اخواتها الساميات وتميزت منهن بخصائص واخذت صبغاً واشكالا انفردت بها وظهر الاسلام فكانت هي اللغة التي حملت رسالته وعبرت عن مبادئه وعماليمه فنزلت آيات القرآن الكريم بها حتى اتم الله آياته فكان القرآن الكريم الكتاب العربي المبين كما وصفه فنزله سبحانه في عدد من آياته :

« انزلناه قرآنا عربيا » 12 - 2 و 20 - 113
« اوحينا اليك قرآنا عربيا 42 - 7 ، « انا
جملناه قرآنا عربيا » 43 - 3 ، « بلسان عربي
مبين » 26 - 195 وآيات اخرى بهذا المعنى .

ليس لها في العربية حرف بصورها اصطلاحات خاصة كالباء المنقطة بثلاث نقط لرسم حرف ال (P) في الفارسية والتركية وغيرها من الحروف التي ليست في العربية .

وهكذا كان سببا في انتشار الكتابة العربية او الرسم العربي في دائرة واسعة جدا تشمل شعوبا كثيرة مختلفة اللغات فكان بذلك حدا ادنى من التفاهم عن طريق الكتابة والحروف وهذه ظاهرة اجتماعية لغوية ذات آثار بعيدة في تفاهم الشعوب والتفاهم وتعاونها تشبه ما عند الامم الاوربية التي تستعمل الحروف اللاتينية وتتشرك في عدد من المفردات .

وهكذا فان الاسلام كان سببا في انتشار العربية لدى نخبة هائلة من ابناء الشعوب التي تدين بالاسلام والمنتشرة في اقطار آسيا وافريقيا وفي انتشار عدد كبير من الالفاظ العربية في لغاتها وفي استعمال الحرف العربي وذلك كله يسهل تعليم اللغة العربية مع وجود الدوافع الدينية والثقافية لتعلمها وهي فعلا تعتبر اللغة الثانية في كثير من هذه البلاد . بل ان ثمة عددا كبيرا من المدارس والمعاهد والجامعات تعلم باللغة العربية او تحلها في المحل الاول بعد لغة البلاد في كثير من البلاد الاسلامية كإيران وباكستان واندونيسيا .

الارتباط الفكري والحضاري :

ان الاسلام اذ اتخذ من العربية لغته منذ ظهوره استعمل مفرداتها للدلالة على مفاهيمه الجديدة فاكتملت كثير من الالفاظ معاني جديدة حملها الاسلام وكثيرا من ما نسي المعنى اللغوي الاصلي وبقي المعنى الجديد كلفظ الجهاد والانفال والزكاة والجنّة .

لغة خالدة لمفاهيم خالدة :

وثمة نقطة هامة لم يلتفت اليها الباحثون الالتفات الواجب ولم يولوها ما تستحق من العناية بل لعلمهم لم ينتبهوا اليها وهانئذ امرضا بين يدي الاخصائيين وقراء العربية عامة .

ان الاسلام جاء بمقائد ومفاهيم ثابتة لا تتغير ولا ينبغي ان تتغير ولكن اتى لنا ذلك واللغة تتطور

واحكام انما تؤخذ من مصادرها العربية في القرآن والسنة واقوال السلف وهكذا ظهرت احداث جديدة هامة نلخصها فيما يلي :

1 - اصبحت العربية لغة الثقافة بالنسبة الى الخاصة فنشأت طبقة من علماء الدين من الاحاجم تعلموا العربية وحذقوها ثم اتسع الامر فكانت لغة الثقافة بوجه عام ولم تقتصر على الثقافة الدينية اذ اصبحت لغة الحضارة الاسلامية في جميع ميادينها وتكون على مر العصور ذلك الانتاج الضخم في ميادين الفقه والعلوم الاسلامية واللغة والادب والفلسفة والتصوف والتاريخ والطب والعلوم اشترك في تكوينه ابناء البلاد التي دانت بالاسلام والتي غدت جزءا من الدولة الاسلامية ولو لم يكونوا عربا في انسابهم ولغاتهم .

2 - اثر العربية في لغات الشعوب الاسلامية :

وفي خلال هذا التمازج اللغوي والتفاعل الحضاري دخلت الفاظ عربية كثيرة في لغات تلك الامم التي دخلت في الاسلام سواء اكان من الالفاظ العبادات ام كانت من الالفاظ التي ادخل الاسلام مفاهيمها الجديدة كمصفات الله تعالى والمعاملات الفقهية والاحكام القضائية والتنظيمات الادارية والسياسية والمفاهيم الاخلاقية والدينية وشاعت هذه الالفاظ ودخلت في لغات تلك الاقوام .

3 - اصبحت اللغة العربية مصدرا تنهل منه تلك اللغات ما تحتاج اليه من الفاظ حضارية جديدة اما لفقدان هذه الالفاظ فيها او لتصورها من توليدها او رغبة في جمال اللفظ العربي المبرر عنها .

وهكذا دخل من هذه الطريقتين كثير من الالفاظ العربية في اللغات الفارسية والتركية والكردية والسواحلية وغيرها بنسبة كبيرة .

4 - ونضيف الى ذلك امرا آخر ذا شأن كبير وهو شيوع الحرف العربي باعتباره اداة لكتابة لغات الشعوب الاسلامية فاصبحت اللغة الفارسية والتركية والاوردية والجاوية (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالحروف العربية وقد وضعت للاصوات التي

والدلالة الالفاظ او معانيها في تبدل مستمر في جميع اللغات ؟ وهنا نجد في اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة . ذلك ان من خصائص اللغة العربية ثبات الحروف الاصلية الثلاثة من كل مادة مهما يطرا على الكلمة من تبدل في اشتقاقها وصيغتها كحروف ع ل م فان جميع الالفاظ التي اشتقت او يمكن ان تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلماء والاستملا والمعلومات والمعاليم والتعليم والاعلام وغيرها من الالفاظ المشتقة من هذا الاصل تشتمل على جميع الحروف الثلاثة ويقابل ثبات الحروف الثلاثة ثبات المعنى الاصلى والمفهوم المشترك بين الالفاظ وهكذا تبدو خاصة بثبات الاصول في صورتها اللفظية ودلالاتها المعنوية وهذه الخاصة هي التي يتطلبها الاسلام لامكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه واحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند ابناءها دون ان تحدث فجوة واسعة بين الاصل اللفظي المستعمل وما انتهى اليه في صورته ومعناه وهكذا يبقى ابناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به . واما اللغات الاخرى فان الالفاظ فيها يعتمرها التبدل والتحول في صورتها حتى تتغير حروفها واصواتها فلا تكاد تعرف اصلها وفي دلالتها المعنوية كذلك وبهذه الصورة يصبح بين الفاظ النص القديم وما انتهت اليه هذه الالفاظ في تطورها بون كبير يؤدي اما الى جهل المعنى القديم او الى الوقوع في خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على اللفظ الحديث او المعنى الجديد .

والفناء ووحددة الشهود والمرضى والجواهر والدور والتسلسل وامثالها) .

القرءان الكريم :

وقد كان القرءان العظيم عاملا قويا في كل ما تقدم لان المسلمين اجمعوا على ان القرءان بنصه العربي المنزل المحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرءان وان ترجمته الى اي لغة اخرى لا تسمى قرءانا وليس لها احكامه فلا تكون مصدرا للاستنباط ولا يتعبد بها بل لا يجوز ترجمته ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيراً له باللغة الاجنبية وبناء على هذا الاساس حرض المسلمون على تعلم القرءان بنصه العربي حفظا او حفظا وفهما وبقدر الطاقة واكثروا من تلاوته تعبدا بحروفه العربية التي اضطروا الى تعلمها فكان ذلك عاملا هاما في تقوية هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية وفي انتاج النتائج الكثيرة التي بينها فيما سبق من كلامنا .

ومن اجل هذا ايضا كان من مداخل الشعوبية وطرائقهم ابعاد الناس عن الفصحى لاجلال العامية مكانها والدعاية لترك الحروف العربية والكتابة العربية والسعي لانفاء النحو العربي وفساد ملكة اللغة وذلك كله يؤدي طبعا الى ابعاد الناس عن الفصحى والى تفرقهم اما مختلفة والى تهديم هذا الجسر العظيم الذي يصل بينهم ومعهم الشعوب التي دانت بالاسلام وقرات القرءان وتعلمته وتعلمت الحرف العربي بل اتخذته اداة للفتها .

وبهذه الدراسة يبدو لنا الطريقان : طريق التثنت والتطفل على الغير وطريق الوحدة وثبات الذات والتحرر وذلك هو طريق الحرف العربي واللغة الفصحى والقرءان العظيم المنزل بلسان عربي مبين .

فالفاظ الحق والمدعى والتضاه والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والاجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من الفاظ العقائد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس الى يومنا هذا .

مصطلحات جديدة :

وقد ظهرت بعد الاسلام مصطلحات لغوية في ميادين الفقه والكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والسياسة والادارة واصبحت جزءا من الثقافة الاسلامية وثبت الكثير منها في المعاجم اللغوية او على